وهج السرد ومساءلة التاريخ في رواية ما لا تذروه الرياح لمحمد العالي عرعار

- بحث في الهوية وتقويض الاستعمار –

Glow of Narrative and Questioning of History in the Novel " Mala tadryhial-riah" by mohammed Al-Ali Araar: A Study of Identity and Undermining Colonialism

مُحَمَّد قحام[1*]، أحسن بوحناش[2]، هارون صوكو[3]

[1]جامعة مُحَمَّد خيضر –بسكرة– (الجزائر)

[2]جامعة مُحَمَّد الصديق بن يحي –جيجل– (الجزائر)

[3]جامعة مُحَمَّد البشير الإبراهيمي– برج بوعريريج– (الجزائر)

الملخص:

تعد رواية "ما لا تذروه الرياح" لمحمد العالي عرعار خطابا سرديا متوهّجا متحرّرا من مركزية الخطاب الكولونيالي الفرنسي، يُسائل سراديب التاريخ خصوصا مرحلة الثورة وما بعد الاستقلال، وينبش في حيثياته، ويرصد الإنسان الجزائري وصراعه مع الآخر الغربي من أجل إثبات هويّته، وتعلّقه بحضارته بكل ما تحمله من أبعاد ثقافية وتاريخية ودينية واجتماعية وسياسية. إلى جانب صموده في وجه المستعمِر الذي يريد طمس هويّته وتقويضها. وإيمانا منا بمبادئنا وهويتنا، ارتأينا الخوض في هذا البحث الذي يستجلي الصراع الهوياتي القائم بين الأنا الجزائري والآخر الفرنسي عن طريق سرد متحرّر من خطاب المركز الفرنسي، ومتوهّج يذود عن حِمى الأنا المستعمَرة؛ إذ أهبّ رياحه ليبعث التاريخ الثوري للجزائر في عوالم تخييلية؛ ليجدّد قراءته، ويصور لنا العلاقة بين المستعمِر والشعب الجزائري المستعمَر، وكذا الذين عصفت بهم رياح الغرب فتجرّدوا من هويتهم، والذين تمسّكوا بانتمائهم وهويتهم وتاريخهم، ولم تذروهم رياح الآخر الفرنسي الهمجي الغاشم. وعليه فالإشكالية المطروحة: إلى أيّ مدى استطاع مُحَمَّد العالي عرعار أن يتمثّل عناصر السرد ويحرّرها من سلطة الكتابات المركزية ويوظفها في استدعاء التاريخ؟ وكيف كانت نظرته إلى التجاذب والتنافر والتناحر الهوياتي بين الجزائري والآخر الفرنسي؟

الكلمات المفتاحية: تحرير السرد ؛ الأنا ؛ الآخر ؛ ما لا تذروه الرياح ؛ مُحَمَّد العالي عرعار.

Abstract: Mohamed Ali Arar's novel" Mala tadrohoal-riah" "What the Wind Does Not Tend" is a glowing narrative discourse free from the centrality of French colonial discourse, questioning the catacombs of history, especially the revolution and post-independence period, and digging into its merits, and monitoring the Algerian man and his struggle with the Western other in order to prove his identity, and his attachment to his civilization with all its cultural, historical, religious, social and political dimensions. In addition to his steadfastness in the face of the colonizer, who wants to obliterate and undermine his identity. Believing in our principles and identity, we decided to delve into this research, which explores the identity conflict that exists between the Algerian ego and the French one through a narrative free from the discourse of the French center, and glowing that defends the fever of the colonized ego, as it blew its winds to resurrect the revolutionary history of Algeria in imaginary worlds, to renew its reading, and to depict the relationship between the colonizer and the colonial Algerian people, as well as those who were blown away by the winds of the West and stripped of their identity, and who adhered to their belonging, identity and history, and were not blown away by the winds of the barbaric and brutal French other.Therefore, the problem arises: to what extent was Muhammad Ali Arar able to represent the elements of narrative and free them from the authority of central writings and employ them to invoke history? How did he view the polarization, disharmony and identity rivalry between the Algerian and the French one?

Keywords: Narrative Editing , Ego , The Other , " Mala tadryhial-riah , Muhammad Alali Arar

*محمد قحام

مقدّمة:

يثير الخطاب الروائي عدة أسئلة تخص حياة الإنسان بكلّ أبعادها وجوانبها الظاهرة منها والخافية المحجوبة. ومن هذه الأسئلة المحورية نجد سؤالات الهوية (الأنا والآخر) والتاريخ التي أولتها الرواية الجزائرية أيّما عناية، ذلك أن الرواية –من دون شك–أقدر الفنون الأدبية على تجسيد هذه الإشكاليات. فهي القادرة على نبش أعماقنا وتجسيد رؤانا وأفكارنا ومشاعرنا وتطلعاتنا، وبالتالي إبراز طبيعة العلاقة بين الجزائر والاحتلال الفرنسي.

إن ما عاشته وعايشته الجزائر من احتلال وفوضى حروب، وما آلت إليه منذ القرن التاسع عشر أسال حبر الكتّاب والمبدعين الباحثين في ملفات الذاكرة والتاريخ والهوية، المعالجين لقضاياها وحيثياتها في أعمالهم الأدبية، ملحّين في طياتها على ضرورة العودة إلى الذات والتمسّك بها والارتباط بالوطن والأرض، وبالتالي التمسّك بالانتماء الثقافي والاجتماعي. ويأتي "مُحَمَّد العالي عرعار" في طليعة الأدباء الذين وقفوا على الأحداث التي طبعت الجزائر أثناء الثورة التحريرية وبعد الاستقلال.إذ تعد روايته "ما لا تذروه الرياح" خطابا سرديا متوهّجا متحرّرا من مركزية الخطاب الكولونيالي الفرنسي، يُسائل سراديب التاريخ خصوصا مرحلة الثورة وما بعد الاستقلال، وينبش في حيثياته، ويرصد الإنسان الجزائري وصراعه مع الآخر الغربي من أجل إثبات هويّته، وتعلّقه بحضارته بكل ما تحمله من أبعاد ثقافية وتاريخية ودينية واجتماعية وسياسية. إلى جانب صموده في وجه المستعمِر الذي يبغي طمس هويّته وتقويضها. وإيمانا منا بمبادئنا وهويتنا، ارتأينا الخوض في هذا البحث الذي يسائل سراديب التاريخ الثوري الجزائري ويستجلي الصراع الهوياتي القائم بين الأنا الجزائري والآخر الفرنسي عن طريق سرد متحرّر من خطاب المركز الفرنسي، ومتوهّج يذود عن حِمى الأنا المستعمَرة؛إذ أهبّ مُحَمَّد العالي عرعار رياحه ليبعث التاريخ الثوري للجزائر في عوالم تخييلية؛ ليجدّد قراءته، ويصور لنا العلاقة بين المستعمِر والشعب الجزائري المستعمَر، وكذا الذين عصفت بهم رياح الغرب فتجرّدوا من هويتهم، والذين تمسّكوا بانتمائهم وهويتهم وتاريخهم، ولم تذرهم رياح الآخر الفرنسي الهمجي الغاشم.

لكنْ،ونحن نخوض غمار هذا البحث، تعترضنا إشكالية مفادها: إلى أيّ مدى استطاع مُحَمَّد العالي عرعار أن يتمثّل عناصر السرد ويحرّرها من سلطة الكتابات المركزية ويوظفها في استدعاء التاريخ؟ وكيف كانت نظرته إلى التجاذب والتنافر والتناحر الهوياتي بين الجزائري والآخر الفرنسي؟

1. تحرير السرد (بين الرواية والهويةوالتاريخ):

تقوم الرواية على أسس جمالية ووظيفية تواصلية، تعمل على ربط الواقع بالخيال في قالب فني؛ ذلك أن الرواية عالم فسيح يتّصف بالكلية والشمولية، والتنوّع والتنويع في الأساليب الفنية والتركيبية التي من شأنها إضفاء صفة التلاحمية على النص الأدبي وجعله فضاءً رحبا يحتضن مختلف المرجعيات.

لقد كان منذ نشأة الرواية في المغرب العربي هاجس العلاقة القائمة بين الأنا والآخر الموضوعَ الرائجَ في الكتابات الإبداعية، وبخاصة في الأدب الجزائري، والمؤثرَ كذلك في بنية الخطاب الروائي في بداياته وعبر مراحل تطوره المختلفة. إن هذا الرواج والقابلية لامتصاص المواضيع المختلفة من قِبل جنس الرواية جعلها الأقدر بين الأجناس الأدبية على التعبير عن علائق الإنسان الحية المعقدة سواء على صعيد فهم المجتمع والكون، واستيعاب التحولات المتسارعة، وهذا ما يتضح من رؤية حسام الخطيب حول أن الصراع الحضاري قد تبدى بين الأنا والآخر في الرواية بشكل أكثر وضوحا من بقية الأجناس الأخرى، وذلك لقدرة الرواية على عكس العملية الاجتماعية وتمثّلها في حركة نموها وتطوره (الخطيب، 1983، صفحة 13)ا.وعليه فالرواية تمثل مجالا رحبا لمعالجة قضايا الهوية، هاته الأخيرة –الهوية–التي تُطلق كاصطلاحٍ على نسقٍ من المعايير التي يُرف لها الفرد ويعرّف، وهي في مجملها سابقة في تشكلها لوجوده الفعلي (ميكشيلي، 1993، صفحة 8).أو هي كما جاء في "المنجد في اللغة والأعلام " للويس معلوف "حقيقة الشيء أو الشخصية المطلقة المشتملة على صفاتها الجوهرية" (معلوف، د.ت، صفحة 873).

إن الرواية في جوهرها ليست إلا خطابا يتحدث عن فترة زمنية في مكان ما، لحدث ما وقع أو يحتمل الوقوع بواسطة أشخاص معينين، فالرواية مهما كان لونها لا تسرد سوى التاريخ، ذلك أن الروائي" عندما يلجأ إلى استحضار النص التاريخي، يقوم بتفكيك بنيته في بنية النص الثاني الذي يسمح لها أن تخرج أو تتجاوز حدود الكتابة الأدبية" (الأعرج، 2002، صفحة 22)فللروائي القدرة على استحضار التاريخ، مع إضفاء بعض الأبعاد التي يستجلي من خلالها صورة العصر وما فيه من أحداث، فينفخ فيها من روحه وذاته وفق ما تتطلّبه رؤيته للأحداث ونظرته للواقع آنذاك وحقائقه؛ وهذا ما نجح فيه مُحَّد العالي عرعار في روايته التاريخية "ما لا تذروه الرياح"، حيث نجده يوظف عناصر السرد من وقفات ومشاهد ليصف وينقل لنا بشاعة الجرائم الفرنسية في حق الأهالي والشعب الجزائري الأبي، ومقاومة هذا الأخير وبسالته وصموده في وجه كل الاعتداءات التي كان يتعرض لها، كما يوظف آليات زمنية أخرى ومكانية، ويستدعي أصواتا تدين هذا الاحتلال في سردية جديدة تخاطب الذات والوعي الإنسانيين ضمن خطاب جمالي تخييلي يفصح، ويدين، ويقاوم، ويؤسس، ويثبت، وينفي، ويستحضر...لقد سعى عرعار من خلال هذا الخطاب الروائي إلى تحرير السرد من السلطة المركزية لأحادية الصوت والمنظور، فتميزت روايته بتنوع المنظورات السردية ووجهات النظر، وتعدد الضمائر والأصوات والشخصيات التي باتت تتمتع بحرية مطلقة في التعبير الإيديولوجية والفكرية، وبالتالي تعدّد في الوعي،وخلق رواية "حوارية تعددية تنحى المعنى الديموقراطي، حيث تتحرر بشكل من الأشكال من سلطة الراوي المطلق،وتتخلص أيضا من أحادية المنظور واللغة والأسلوب، وبتعبير آخر يتم الحديث في هذه الرواية المتعددة الأصوات

والمنظورات عن حرية البطل النسبية واستقلالية الشخصية في التعبير عن مواقفها بكل حرية وصراحة، ولو كانت هذه المواقف بحال من الأحوال مخالفة لرأي الكاتب' (حمداوي، دت، صفحة 6).

لذلك، فإن هذا العنوان المثير "ما لا تذروه الرياح" ليس وليد الصدفة، وليس عنوانا اعتباطيا؛ لأن الكاتب إنما يكتب أشياء مبررة وهادفة وخادمة. لقد تعمّد مُحَمَّد العالي عرعار وضع هذا العنوان؛ لأنه مرآة عاكسة لمتن الخطاب الروائي ومحتواه، إذ نلمس فيه تعبيرا عن أزمة هوياتية، فنستحضر من خلاله أولئك الذين لم تستطع رياح الآخر الفرنسي الهمجي أن تذروهم وتطمس هويتهم، كما نستحضر من خلال العنوان أولئك الذين ذرتهم رياح الغرب، وانبهروا به وبحضارته، فانسلخوا عن هويتهم الجزائرية، وتبنوا كل ما هو فرنسي، وراحوا يقلدونهم ويمجّدونهم (أمثال البشير).

2. الهوية الوطنية والثقافية:

ككلّ الروايات –أو معظمها–تتداخل الموضوعات في رواية "ما لا تذروه الرياح" وتتعدّد وتتشعّب فيها الأحداث على امتداد أحد عشر فصلا. فنجد مثلا موضوع الحب والصداقة والهجرة والأرض والقيم والاحتلال والمقاومة والتاريخ والثقافة وغيرها. لكنّ الناظر المتفحِّص لهذه الموضوعات ليجد في كلٍّ منها ريح الهوية المنبعثة من خطابها من بين السطور،أو من السطور ذاتها، ذلك أن النص يتحدّث حينا ويُصرّحُ، وحينا آخر يُلمّح، ويلبث صامتا في أحايين كثيرة وهنا ينبغي على القارئ أن يُفعّل خاصية الفهم والتفسير لكشف المخبوء والمضمر الذي لم يتفوه به النص، عن طريق تأويل اللغة المواربة/المراوغة باسترجاع معانيها الخفية "وتخليصها من أسر الفهم الحرفي ومن ضيق النظرة الوصفية التي تحاصرها بتحويلها إلى مجرد استعارة قائمة على المماثلة، فالرمزية لا تعمل إلا حين يتمّ تأويل بنيتها (ريكور:، 2006، صفحة 16)".

إن استجلاء الصراع الهوياتي في رواية "ما لا تذروه الرياح" يحتاج في محطات عديدة من خطابها إلى تفعيل مهمة التأويل لاستقرائها، والكشف عن مكنونات ذلكم الخطاب الذي طعّمه الكاتب بين سطوره وفي سطوره نفسها أيضا. وهذا ما سنعمل على إبانته في صفحات هذا البحث. أما عن دور التأويل فيؤكد لنا "عادل مصطفى" على أن "على كل تأويل أن يشنّ هجوما على الصيغ الظاهرة في النص، فالخوف من المضي فيما وراء ظاهر النص هو ضرب من عبادة الأوثان، وضرب من السذاجة التاريخية في الوقت نفسه" (مصطفى، 2003، صفحة 176).

يحضر سؤال الهوية الوطنية والثقافية في رواية "ما لا تذروه الرياح" حضورا لافتا، ذلك أن الرواية في أصلها قائمة على العلاقة بين الجزائريين والآخر الفرنسي، وكفاحهم لأجل استرجاع ما سُلب منهم؛ أرضهم وحريتهم التي اغتصبها المستدمر الفرنسي، الذي نكّل بالشعب الجزائري أيّما تنكيل؛ ذبّح وقتل وهجّر، وحرق، ودمّر، وعنّف، فلم يُبق على صنف من صنوف التعذيب إلا وأخضع الجزائريين له. وهذا ما جسّده مُحَمَّد العالي عرعار في عائلة "بلقاسم" التي تعد

نموذجا للعائلات الجزائرية، التي ذاقت الويلات من المغتصب الفرنسي، ومع ذلك بقيت وفيّة لهويتها ولم تنسلخ عنها وذادت عنها بكل بسالة، وبكل ما أوتيت من قوة واستطاعة. فنلفي العباسي ابن بلقاسم يمدّ إخوانه الثوار بالمساعدة،ويشارك المجاهدين في عدة اشتباكات في الجبل ضد الاحتلال الفرنسي، "يا للعباسي، إنه رجل ممتاز، واسع الصدر، كريم النفس، نبيل المشاعر، أتعرف أنه يساند جميع المجاهدين في الجزائر، ويقدم لهم الإعانات بكل الوسائل؟ بل لقد صعد مرات عديدة، وشارك في عدة اشتباكات"[٧] (عرعار، د.ت، صفحة 72). وهو -أي العباسي-نفسه الذي فَقَدَ والديه في إحدى الغارات الجوية لفرنسا التي لم تغضّ طرفها عن صغير ولا كبير، ولا شيخ ولا طفل، فلقوا حتفهم معتزين بعروبتهم، فخورين بإسلامهم، وبجزائريتهم، وانتمائهم إلى أرضه المباركة الطاهرة. أجل، "لقد فقَد بعض أفراد أسرته إثر معركة طويلة دارت بين الثوار والقوات الفرنسية في القرية التي يسكنون فيها...لقد فقدَ والده ووالدته" (عرعار، د.ت، صفحة 134). لقد كانت القرية تكتظّ بعدد هائل من الشهداء في سبيل الوطن، الذي عطّرته بعبق دمائها الزاكيات الطاهرات.

لقد ظل العباسي متعلقا حتى بعد أن وُوريا في التراب فكان يزورهما وعائلتَه، إذ يقول الكاتب على لسان العباسي: "أبي العزيز، أمي العزيزة...سلام الله عليكما، أنا ابنكما العباسي، ابنكما البارّ، جئت أزوركما، وأطّلع عليكما، لأثبت لكما أني لم أنسكما" (عرعار، د.ت، صفحة 146). إن مُحَمَّد العالي عرعار من خلال هذا الخطاب الآنف الذكر يبيّن لنا مدى تعلّق الجزائري بأرضه وهويته التي هي رأس ماله، إذا ما اعتبرنا والدي العباسي معادلا موضوعيا للأرض والوطن التي أنجبته وربّته وترعرع في كنفها، فهو لم ينسَ فضلها، ولم يكفر بنعمتها حتى في أحلك الظروف، وظل متمسّكا متشبّثا بوطنيته وهويته وانتمائه الاجتماعي والديني والثقافي، ذلك أنّ "الهوية لا تصان إلا بأن يتمسك الشعب بثقافته التي ورثها عن أسلافه؛ أي في العقيدة وفي اللغة، وفي الفن، وفي الأدب وفي كثير من النظم الاجتماعية' (محمود، 1993، صفحة 310)

ومن مظاهر الوطنية ذلكم الشخص الذي التقى بالبشير في فرنسا، ذلكم الذي يكنّ العداء للاحتلال الفرنسي،وهو وإن أرغمته فرنسا وهجّرته بالعنوة وجنّدته بالإجبار إلا أنه يبقى جزائريا خالصا لا تشوبه شائبة فأنصت له إذ هو يحدِّث البشير: "أنت تعرف أننا لا نحب المجيء إليها، فهي بلاد تبغض وطننا وتفعل فينا الشر...لقد جئنا رغما عنا... يجب علينا أن نصبر ونثق في الله؛ لأنه سيحرّرنا من أيدي هؤلاء الناس... كيف تريد مني أن أرفع السلاح في وجه أخي الذي صعد إلى الجبال، وأوجّه إليه الرصاص، فأجرحه أو أقتله... أنا والله لن أفعل ذلك ولو جروني جرّا (عرعار، د.ت، الصفحات 71-72)".

لم يكتف الجزائريون بالوقوف في وجه المستدمر الفرنسي من الداخل فقط، هذا الآخر الهمجي الذي يروم طمس هوية الجزائريين وتجريدهم من انتماءاتهم بمختلف صنوف التعذيب والتقتيل الوحشية، بل امتدّ دفاعهم عن مبادئهم إلى حدّ محاولة ضرب فرنسا في معقلها من داخلها وفي عقر ديارها، وهذا إن دلّ على شيء فإنه يدل على طبيعة العقلية الجزائرية التي ترفض الرضوخ والاستسلام، والتي لا تسمح ولا تسامح أيا كانت قوته على المساس بهوتها التي لخّصها عبد الحميد بن باديس في الإسلام والعروبة. فالإخوة كما يسميهم مُحَمَّد العالي عرعار يعملون في فرنسا، ويجمعون ما يلزم من المعلومات، ثم يوافونها لإخوانهم المجاهدين الثوار قصد ضرب وزعزعة استقرار الاحتلال في إحدى نقط ضعفه، وهذا ما نلمسه في قوله: "والإخوة لا يعلمون ما تدبره هذه السيدة ضد البشير وضد الجزائريين بصفة عامة، هذا ما سمعته من الأخ الذي يعمل في المهجر، وجاء إلى الجزائر منذ فترة قصيرة" (عرعار، د.ت، صفحة 155).

إن الروح الوطنية الشامخة لتظهر جليا في شخصية العباسي ابن بلقاسم، أين أنكر أخاه المنسلخ عن هويته والذي أصبح فرنسيا لشدة انبهاره بكل ما هو فرنسي، أنكره لأنه خان وطنه؛ لأنه خان إخوانه، أنكره لأن ذلك ديدن الجزائريين اتجاه ما يسمونهم بالحركي أمثال البشير. واسمع لشموخ العباسي رغم الجراح المثقلة يقول لأحد إخوانه في الجبل: "أنا لا أملك أخا الآن، انتهى كل شيء..لقد حدثتك مرة في هذا الأمر وأعلمتك بأنه لم يعد لي أخ... تكلم العباسي بانفعال ملحوظ" (عرعار، د.ت، صفحة 173).

أما الهوية الثقافية فهي الأخرى أحد أهم المكونات التي تشكل الكيان الذاتي، وقد وعى الكاتب ذلك فاشتغل عليه في مواطن عدة من خطابه، فكان يختار شخصياته وفضاءات روايته بعناية فائقة لتؤدي دورها الذي سيقت ورسمت من أجله، ألا وهو إبراز الهوية الجزائرية، ومن ذلك دلالات الأسماء المختارة التي تحمل روح الجزائر وصفاتها وملامحها،وهذا ما يتجسد في اسم رب الأسرة "بلقاسم" الذي عانى الأمرّين، هذا الاسم الشائع في الجزائر الذي يوحي -بتفعيل سيميائي- بأنه قد أقسم وتعاهد بأنه لن يتخلى عن دينه الإسلام، ووطنه الجزائر، وهويته، وأنه سيرفض كل المحاولات وكل المبادرات المغرية من فرنسا الساعية لاحتوائهم، كما يحيل هذا الاسم أيضا إلى معنى القسمة والتقاسم مع طرف آخر شيئا ما، وكأنّ الكاتب يريد بأن يقول لنا بأن محاولة فرنسا لاقتسام الجزائر إنما هي قسمة ضيزى، وكأن بلقاسم يصيح: لكم أرضكم ولي أرضي التي آليت أن لا أتقاسمها مع أجنبي دخيل. " نعم، أنا بلقاسم. ظهرت على ملامح الجندي انقباضات مرعبة نتيجة الغضب والقلق، فدنا وجهه المحتقن من بلقاسم، وشد على سلاحه بيدين من حديد..." (عرعار، د.ت، الصفحات 18-19). أما اسم "العباسي" المشتق من اسم عباس فهو يحمل دلالة دينية ارسّخ مبادئ الجزائري وتمسّكه بدينه، ونصرته لأعلامه واعتزازه وفخره بذلك. وهو ما ينعكس في تسميات أولادهم.

ونجد اسم "ربيعة" زوجة البشير الذي يعتبر من الأسماء الشائعة في الجزائر، إذ نلفيه يحيل هو الأخر سيميائيا إلى الروضة، أين يوجد الخصب والنماء والخضرة والبهاء والحسن والنضارة والحياة، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على طبيعة العقلية الجزائرية المتفائلة وأن أرضهم ستغدو روضة تنبض بالحياة كسابق عهدها وسالفه، وأنْ ستختفي كل مظاهر القبح المعادية للطبيعة والإنسان التي خلفتها فرنسا. وانظر إلى اسم ولدها، لقد سمّته "باديس" تيمّنا بالعلامة المناضل عبد الحميد بن باديس، وما هذا الفعل إلا دلالة على الروح الجزائرية المتعلقة بالهوية الجزائرية، وعدم تخليهم عن كل مقوماتهم وخاصة تمسكهم بالدين الإسلامي الحنيف وبعروبتهم.

لقد أبان مُحَّد العالي عرعار أيضا على الموروث الشعبي والثقافي المادي للثقافة الجزائرية الذي يعكس هويتها المتجذّرة فيها، ومن ذلك "لباس الحائك" عندما "راحت هنية وربيعة تسرعان في مشيتهما حريصتين على مراعاة الآداب وعدم التعثر في الحائك الذي يلمس ظهر حذائهما" (عرعار، د.ت، صفحة 148). هذا اللباس الذي يُظهر مدى عفة النساء الجزائريات وحشمتهنّ آنذاك، وتشبثهن بآثار وتقاليد الآباء والأجداد. ومن موروثنا أيضا نجد "الشال" و "القصعة الخشبية"، بل وحتى في طبيعة الأكل وأنواعه، فالجزائريون لهم أُكلاتهم الخاصة التي تعبّر عنهم وعن هويتهم ويُعرفون ويعرّفون بها ومن خلالها على غرار "العيش"، وهو ما جاء ذكره في حفل زفاف البشير ابن بلقاسم حينما "انصرفت زوجة بلقاسم وهي تمسك شالها النازل على كتفيها...أخذت القصعة وذهبت إلى القدر، وملأتها "عيشا" وروّته بالمرق المشحّم، وزرعت فوقه قطعا من اللحم بيد بخيلة" (عرعار، د.ت، صفحة 8). وفي موطن أخر يورد ذكر الكسكس الذي يعدّ رمزا بارزا في الثقافة الجزائرية، كان ذلك حينما تذكّر البشير –وهو في غربته–عائلته، تذكر "والده يجلس خلف الدار عند الجدار.. وها هي والدته.. تفتل الطعام بيديها الكبيرتين وتنتظر قدوم أوان العشاء لتقدم الكسكسي لأهل الدار..' (عرعار، د.ت، صفحة 134).

لقد رسم الكاتب مُحَّد العالي عرعار عمله الروائي وأتقن حبكه وسبكه وفق ما تمليه الهوية الجزائرية وثقافتها، وهو ما ظهر في شخصياته، وفي عاداتهم وتقاليدهم. كما أبان عن الدور الفعال للجزائري المحافظ، الذي يبذل الغالي والنفيس من أجل الحفاظ على أصل العائلة ولمّ شملها، وهو ما يظهر جليا في شخصية العباسي.

3.تصدّعات الهوية لدى الشخصية المنهزمة:

تعد الشخصية المنهزمة الضعيفة الشخصية على شاكلة "البشير" إحدى النماذج التي أنتجتها وسعت إلى إنتاجها للقوات الفرنسية في الجزائر من خلال السياسات التعسفية التي تؤثر في العقول الجزائرية، وتعمل من خلالها على طمس هويتهم وتشكيكهم فيها وفي مبادئهم ومعتقداتهم.

لقد مثّل الكاتب مُحَمَّد العالي عرعار لذلك بشخصية البشير الذي لعب دور الراضخ الخاضع لواقع الاستلاب والاغتراب والتبعية، ذلك أنه تجرّد عن هويته الجزائرية وانسلخ منها أمام الآخر الفرنسي الذي تبنّى كل ما يتعلق بهم وبحضارتهم، وانبهر بها أيما انبهار، ما أحدث شروخا وتصدعات وهائلة في شخصيته التي عكست حالة من التمزق الهوياتي؛ كانت شرارته الأولى عندما أخذه العسكر الفرنسي من البيت في سياراتهم قصد تجنيده، حيث "أحسّ البشير بمتعة في الرضوخ والاستسلام.. رأى أن في قوة الجنود الأجانب مقدرة خارقة، شيئا جميلا، باهرا، يدعو إلى الإعجاب والتعلم والاقتداء.. يا لجمال القوة، ويا لروعة السيطرة' (عرعار، د.ت، صفحة 28).

إن هوية البشير بهذا تنقسم إلى قسمين: "هوية وغيرية؛ يشعر بالاغتراب إن مالت الهوية إلى غيرها أو انحرفت إليه،والهوية هي أن يكون الإنسان هو نفسه، متطابقا مع ذاته، في حين أن الاغتراب هو أن يكون غير نفسه بعد أن ينقسم إلى قسمين: هوية باقية، وغيرية تجذبها" (حنفي، 2012، الصفحات 11-12). أجل، فقد كان البشير ينجذب نحو الفرنسيين ويرى فيهم الإنسان المثالي؛ يرى فيهم الجمال والقوة والرقة والحضارة، ويميل إلى كل ما هو فرنسي، وهو ما أسفر عنه أول لقاءٍ له مع الجنود الفرنسيين وضابطهم، سأله أحدهم:

"_ أتُحبّذ الرجوع إلى المدرسة؟

_ نعم، يا سيدي.

هكذا أجابه بسرعة.. (عرعار، د.ت، صفحة 33).

أجابه بسرعةٍ؛ لأنه كان توّاقا إلى الانضمام إلى صفوف هذا المستعمِر الغاشم، لكن هيهات هيهات فعلى بصر البشير غشاوة. وبالفعل، جُنّد البشير في صفوف الآخر الفرنسي، بل واحتفظوا به حتى بعد إنهائه من أداء الخدمة العسكرية؛ وذلك لنجاحه وتفوقه لمي يستفيدوا من خدماته أكثر، ويوظفونه في مصالحهم ومآربهم. لقد انعكس هذا الاندماج على شخصية البشير الذي أصبح فرنسيا بما تحمله الكلمة من معاني؛ فأصبح لسانه فرنسيا، وعاداته وهيئته فرنسية خالصة، بل إنه كان يتحدث الفرنسية حتى مع الجزائريين الذين كان يصادفهم هناك في فرنسا ويتحاشى كل المحاشاة الالتقاء بهم. وهذا ما يمثّل صورة الاستلاب الثقافي والحضاري لدى هذه الشخصية المنهزمة الهشةِ أركانُ هويتها،فيحضر اللسان الفرنسي الخالص ليؤشّر على الانسلاخ والتمزق من منظور الصراع الثقافي الهوياتي. ليس هذا فقط فالبشير لم يكتف بالتحدث باللغة الفرنسية فقط، بل قام بتغيير اسمه إلى "جاك" زعما منه أنه أفخم وأجمل من اسم البشير، وأنه يحدث وقعا ونغما تطرب له الأذن، وتتلذ به؛ لأن لديه جرسا رنّانا خفيفا ساحرا يسكر القلب ويشمله. لقد أنكر البشير-عفوا جاك-اسمه وأخاه العباسي وزوجته وحتى ابنه وكلّ أفراد عائلته، بل وأهل وطنه جميعهم. لقد أضحى

فرنسيا خالصا، حيث يقول: "أنا لا أسمى البشير، واسمي الحقيقي إن كنت تود معرفته هو "جاك" فأنا لا أعرف العباسي.. وأنا غير متزوج" (عرعار، د.ت، صفحة 74).

لقد حاول البشير الانتماء إلى الفرنسيين بكل السبل الممكنة، حتى وصل به الأمر إلى استنكاره لتسمية ابنه! ابنه الذي لم تره عينه قط، وينكره أصلا؛ لأن بشرته ليست بيضاء، وعيونه ليست زرقاء مثل الأطفال الفرنسيين، "فما معنى "باديس"؟ وما معنى أن يكون مثل عالما مثل ابن باديس، عالِمنا؟ فلماذا لا يكون اسمه مثلا "بيير" أو "بول" أو "كلود".. إن لهذه الألفاظ رنة حلوة وسحرا هاصا يشغف القلب، ويشف الآذان.. وكل هذه الأسماء هي أسماء علماء" (عرعار، د.ت، صفحة 78). لقد رغب البشير بشدة لو كان ابنه يحمل إحدى هاته الأسماء الرنانة حسب زعمه، مستنكرا تسميته على عالم الجزائر الذي وقف في وجه فرنسا وصدّها عن أهدافها وتطلعاتها الاستدمارية وطموحاتها في تنصير الشعب الجزائري المسلم وفرنسته، وهو لربما ما أثار حفيظة البشير الذي يمجد كل ما هو فرنسي، ويدعو لتجاوز كل ما هو جزائري،ويصفه بالرديء والمتخلف.

إن البشير يعيش حالة انفصال مع ذاته وهويته، فلا هو صان أُخوّته للعباسي، ولا هو احترم علاقته الزوجية مع ربيعة، ولا هو قدّر والديه حقّ قدرهما وأحاطهما بالعناية والرعاية والاهتمام، فلم يكن يردّ على رسائلهم، ولم يحفل بهم، بل أنكرهم وتجرّد عنهم إلى أن أيسوا منه ونبذوه؛ لأنه خان وطنه وأمّته فأصبح بالنسبة لربيعة "مجرد إنسان فاقد العقل، ليس له شعور بالمسؤولية.. تذروه الرياح حيثما أرادت، إنه مجرد كائن ضعيف الشخصية منحطّ الإدراك، لا يستطيع مواجهة الظروف، والصمود أمام صروف الدهر. إنه كائن تافه، مفقود يتطلب مرشدا وهاديا (عرعار، د.ت، صفحة 197)". هذا هو البشير بمنظار ربيعة زوجة البشير البارّة، الذي خانها وأنكرها كليا، في الفترة التي كان مفتونا خلالها بفرنسا وأشيائها وبناتها وتحرّرهم، فأصغ إليه وهو يحدّث نفسه عن المرأة التي وقع في حبها وعشقها، ودخل في علاقة غير شرعية معها ضاربا تعاليم الإسلام عرض الحائط، ومستمتعا بالحياة الأجنبية الفرنسية غير ملتفت لحلالها من حرامها، فلا قيود تردعه، ولا محظورات تزجره هناك. يقول: "يا للمرأة الشجاعة التي تخترق الشوارع بمفردها دون حارس أو حام، يا لقامتها المديدة وجمالها الساحر الفتّان.. إنها تمشي مرفوعة الرأس، متصلبة القامة، معتزة بنفسها، تتحدى الزمن، وتدعو إلى الإعجاب.. هذه هي المرأة التي يمكن للمرء أن يفتخر بها ويعتز بقربها.." (عرعار، د.ت، صفحة 99).

إن اختيار الكاتب للمرأة؛ ربيعة الجزائرية وفرونسواز الفرنسية لَيحمل عدة دلالات لعلّ أبرزها أن الكاتب يحاول إقامة معادل موضوعي للوطن والأرض من خلال شخصية البشير المتصدعة المنهزمة المتخلية عن هويتها، فكأن تنكّره لزوجته ربيعة هو تنكّر للجزائر، تنكّر لأرضه ووطنه. وما استبدالها بالحسناء الفاتنة فرونسواز إلا تبنّيه لفرنسا وكل ما هو فرنسي. لقد اختار الكاتب مُحَّد العالي عرعار المرأة "ليقيم دليله على الانحراف المعياري باتجاه تفرنسه وتغربه..فقد اختار

زوجته مثالا لينكر علاقته بها وله أسبابه، وليقطع صلاته، حيث تقف المرأة الرمز الحي والمعادل الموضوعي للأرض والوطن' (عليان، 2004، صفحة 47).

لقد فضّل البشير بعد إنهائه للخدمة العسكرية أن يبقى هناك في فرنسا، لأنها أَسَرَته بجمالها وجميلاتها، فراح ينغمس في المجتمع الفرنسي متخليا عن مقوماته ومبادئه الجزائرية، ومقلّدا للفرنسيين في كل صغيرة وكبيرة، متأثرا بهم وبعاداتهم وأفعالهم ولهوهم ومجونهم، حتى صار مدمنا للخمر والنساء بائعات الهوى، وفي لباسهم وهندامه، وهنا نستحضر المقولة الخلدونية حول أنّ "المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره، وزيّه ونحلته، وسائر أحواله وعوائده. والسبب في ذلك أن النفس أبدا تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه" (خلدون، 2004، صفحة 283). أَوَ لم يقل البشير بعظمة لسانه: "أنا لست جزائريا، والجزائر لا تهمني لقد أصبحت مثلكم فرنسيا، لا علاقة لي بما هو خارج فرنسا...أنا لا أخسر شيئا، لتحيا فرنسا ولأحيا لها" (عرعار، د.ت، الصفحات 80-83). ليس هذا فقط، فقد راح البشير فوق كل هذا يقزّم ويحتقر أناه الجزائرية وكل ذاتٍ من أبناء جِلدته ووطنه، ويصفهم بأبخسّ الأوصاف، حيث يقول في حوار مونولوجي: "آه من هؤلاء الناس، يا لهم من بؤساء مساكين، لعنة الله عليكم أيها الكلاب، لا يستطيع الإنسان أن يتخلص منكم. فحيثما ذهب لحقتم به. وأينما حل نزلتم عليه.. سأمحي الاعوجاج الذي ورثتموه عن جدودكم.. سأستعمل معكم القسوة التي لا مثيل لها..' (عرعار، د.ت، الصفحات 66-70). وأصغ إليه وهو يمدح الفرنسيين بصنوف المدح المختلفة التي تعبر عن شدة ولعه بهم إذ يقول عنهم: "عجبا لهؤلاء الناس.. عجبا لقوتهم.. كم هم أقوياء..كم هم عزيزو الجانب.. إنهم يسيطرون على كل شيء.. إنه لشرف عظيم أن يكون الإنسان في جانبهم" (عرعار، د.ت، صفحة 42). وها هو يعبر عن شدة إعجابه ودهشته بالبلاد الفرنسية، بل ويربط السعادة بوجودهم ويحصرها في جنسهم، فبدونهم تضمحلّ السعادة وتختفي، إذ يقول: " يا لعظمة هذه البلاد.. كم هو جميل أن يكون الإنسان موجودا إلى هنا.. لا شك أن جميع السكان القاطنين في هذه المدينة ينعمون بكل الخيرات، ويجدون تحت أيديهم كل ما يريدون.. ولا تحرم عليهم حاجة.. أينما وُجدوا توجد السعادة، وأينما كانوا يكون الجمال" (عرعار، د.ت، صفحة 55).

ومرّت الأيام ومرض البشير بالسل، وبقي طريح الفراش، لا عائد يعوده، ولا قريب يعينه. وكان استقلال الجزائر نقطة تحوله وعودته لرشده، أين تحركت مشاعره، وعاد له وعيه وعقله الذي سلبته منه فرنسا، ورأى الوجه الحقيقي لفرنسا الصادم، كيف لا وهو كان يحسب أنها بلد الجمال والحضارة والعلم والثقافة والتطور، ليجدها وكرا للدعارة والعهر وكل صنوف الرذائل والفجور والموبقات، "أهذا الحي موجود حقيقة في فرنسا؟ وفي باريس؟ ماذا تفعل هذه المجموعة من النساء هنا؟ إنه لعار على فرنسا أن يكون في مدنها مقل هذه الأحياء ومثل هذه النساء، يا لذلك العار الذي يُندى له الجبين،

أَيوجد هذا الشيء في فرنسا البلاد المتقدمة التي تحتل الأقطار وتستعمر القارات، ويكاد رأسها يلمس السماء من شدة الكبرياء والاعتزاز بالنفس' (عرعار، د.ت، صفحة 72).

لقد أزاحَ استقلال الجزائر وحواره مع فرونسواز المعترفة بجرائم وعدم شرعية الاحتلال الفرنسي الغِشاوةَ من عيني البشير الذي كان كمثل الأعمى والمنوّم، فعادت له نخوته، واستيقظت روحه، فقرر العودة إلى أرضه ووطنه؛ لأنه لا انتماء له عن بلده الجزائر، والتصميم على التكفير عن هفوته وذنوبه. لقد حرص مُحَّد العالي عرعار على أن يعيد شخصية البشير إلى أصلها وجوهرها وهويتها الحقيقية، وثقافتها الأصيلة النقية، بعد رحلة دامت لسنوات؛ رحلة استكشف من خلالها البشير الآخر الفرنسي عن كثب، استكشف بلد الحضارة والتقدم المزعوم، ووضع يده على جرائمه وسوداوياته وسياساته القمعية البشعة، ليعود في الأخير إلى أناه؛ الأنا الجزائرية الشامخة بوطنيتها، وإلى بلده الجزائر "حسناء العالم وعروسة المدن" (عرعار، د.ت، صفحة 210).

4.صورة الآخر الفرنسي المستعمِر:

لطالما كانت الأنا الغربية منذ القديم ترى نفسها عن طريق الآخر، وتحديدا "الآخر الشرقي" أو بالأحرى الآخر المتخلف حسب زعمهم، وهذا ما يؤكده المفكر المغربي "مُحَّد عابد الجابري" عندما تعرّض لمسألة الهوية والعروبة والإسلام، حيث يرى بأن "العقل الغربي لا يعرف الثبات إلا من خلال النفي، وبالتالي لا يتعرف إلى الأنا إلا عن طريق الآخر،وهذا شيء معروف في الفكر الأوروبي منذ القديم' (الجابري، 2012، صفحة 173) وبطبيعة الحال فإن هذا الآخر بالنسبة للمستعمِر الفرنسي لن يكون إلا في الشخصية الجزائرية التي يعمل جاهدا على أن يطمس هويتها ويقوّض عقائدها وأركانها.

لقد عمل مُحَّد العالي عرعار على رسم صورة المستعمر في روايته التاريخية "ما لا تذروه الرياح"، وراعى جانب الحيادية، فكان يرينا الوجه البشع الحقيقي لها تارة، ويعرض لنا نماذج معتدلة تارة أخرى؛ نماذج تنبذ ما تقوم به فرنسا أصلا. وإذا ما أنعمنا النظر والاستقراء في التحليل فإننا نلفي صورة الآخر الوحشية الهمجية من عيون الجزائريين النابذين لكل ما هو فرنسي ويهدد أرضهم ومبادئهم وهويتهم، ونلفيها بلد الحضارة والتقدم والازدهار والإنسانية من عيون الحركى المنبهرين بفرنسا المرتدين عن الجزائر. فها هو بلقاسم الأب الجزائري المتعلق بهويته الجزائرية يعطينا نظرة وصورة الآخر الفرنسي حينما داهمهم العساكر الفرنسيون في بيتهم، أولئك المتوحشون الهمجيون، سيماهم في عيونهم ووجوههم. نظر بلقاسم في وجه الجندي وراح يحدّث نفسه في حوار مونولوجي: "كيف عرف اسمي؟ لا شكّ أنه اطلع عليه من أحد المصادر الرسمية، إن عيونه لا تعجبني إنها زرقاء.. نحن لا نحب هذا اللون من العيون.. فقد قالت لي والدتي مرارا، احرص من صاحب العيون الزرقاء.. إنها مبعث الشر.. لقد أخذت برأي أمي.. صدقت أمي (عرعار، د.ت، صفحة 17).

أجل، فالجنود الفرنسيون جاؤوا لأخذ ابنه البشير، بل إن أحدهم وهو يفكر في مكان اختباء البشير قال في نفسه: "إن الطرق المسالمة لا تؤدي إلى نتائج مع هؤلاء الناس.. إذا فلا بد من استعمال العنف (عرعار، د.ت، صفحة 23). إنهم يحاولون إرضاخ وإخضاع الشعب الجزائري وإدماجه مهما كانت السبل وكيفما كانت نتائجها. إنهم لا يملكون ذرة من شفقة أو رحمة. لقد أبادوا قريةَ العباسي ككثير من القرى بقنابل الطائرات، فسقط فيها والداه شهيدين، وسقط معهما عدة شهداء؛ أطفال صغار برآء، شيوخ وعجزة، يتّمت الكثير، ورمّلت نساءً، وشرّدت، إن وجه فرنسا الحقيقي الراعية للسلام والإنسانية والحضارة؟! وصدق فرانز فانون حينما قال عن المستعمِر في كتابه الشهير "معذبو الأرض" بأنه "الشرّ المطلق، إنه عنصر متلف يحطّم كل ما يقابله، عنصر مخرّب، يشوّه كل ما له صلة بالجمال أو الأخلاق، إنه مستودع أقوى شيطانية، إنه أداة لقوى عمياء، أداة لا وعي لها ولا سبيل إلى إصلاحها (فانون، 2015، صفحة 44). لقد أهلك الغاشم الفرنسي الحرث والنسل "وبالفعل وكأن كل شيء قد سُطّر من قبل، فقد أخذت الطائرات تطلق القنابل على القرية بكميات كبيرة، وما هي إلا مدة قصيرة، حتى سكن كل شيء، وجمد كل شيء فلا حياة هناك، ولا وجود، كل شيء ذهب مع النار، كأن لم يكن.. كل شيء عدم ما عدا أشلاء بشرية وحيوانية، تغطي سطح البسيطة، ومنازل منهارة الجدران متحطمة السقوف، مضطرمة النار.. لم ينج أحد.. لا الذين كانوا في الخارج في الحقول، ولا الذين كانوا في الداخل في البيوت". كل هذا الدمار وكل هذه الوحشية اللاإنسانية بسبب سماعهم لخبر مفاده أن جماعة من المجاهدين الذين يذودون ويدافعون عن أهاليهم وأعراضهم وأرضهم في تلك القرية التي كان أنْ أبادوها عن بكرة أبيها.

لقد حاولت فرنسا بناء هوية جديدة فرنسية للجزائريين بعد أن تكنسَ كل ما هو عالق بهم وفيهم من جزائريٍّ، فعملت على تجنيدهم بالقوة وبالإجبار في جيشها، وتلقينهم لتعاليمها ولغتها ولو بالتعذيب القاتل المنافي لحقوق الإنسان والإنسانية، وشتى صنوف العذاب التي أصبحت فنا وحرفة تمتهنها القوات القوات الفرنسية وتتفنن في إبداع أساليبها، وقد نجحت فرنسا في ذلك إلى حدّ ما، وهو ما يتجسد في شخصية البشير التي عُبِّأت بالانهزامية والرضوخ إذ كان "يحسّ بالضياع عندما لمسته فوهة البندقية في ظهره، تقوده حيثما تريد (عرعار، د.ت، صفحة 26). وبتأويل بسيط لهذه العبارة فإحساس الجزائري بالضياع، هو طمس لهويته وتقويض وهدم لها من أجل إعادة بنائها حسب المتطلبات والتصورات الفرنسية، والذي يدل على أن فرنسا تعتبر هي الموجِّهة إلى ذلك والعاملة عليه دلالةُ البندقية التي تقود الجزائري المستلب حيثما يريد هذا الآخر الفرنسي، الذي يرسم طريقه ويبني هويته المبتغاة.

إن صورة الآخر الفرنسي بعين الفرنسي نفسه قد وردت على لسان أحد أصدقاء البشير المتفرنس، هناك في فرنسا حينما علّق: "إن الجزائر مازالت بلادا متأخرة.. لكن لو تتوقف الثورة، فإن الفرنسيين سيعملون على محاربة التأخر الموجود، ويجعلون الجزائر بلدا مثل فرنسا.. يشيدون فيها مطاعم فخمة" (عرعار، د.ت، الصفحات 69-70). إنها

الرؤية البرجية للآخر الفرنسي نحو الأنا الجزائرية، الذي يرى فيها التخلف والافتقار للحضارة وسبل العيش الرغيد، التي تعمل فرنسا على توفيره بزعمهم.

إن الكاتب مُحَّد العالي عرعار لم يكن يرى بعين واحدة إلى المستعمِر إلى الآخر الفرنسي، فقد أورد لنا عدة صور لفرنسا، لعلّ ما يطغى عليها الوحشية والهمجية الزائدة، بيد أن الكاتب كان حياديا من خلال تصويره لنا لبعض النماذج النبيلة والمعتدلة للآخر الفرنسي، حيث أبرز لنا بأتن هناك من يدين هذا الاحتلال أمثال فرونسواز المستوطنة بالجزائر، أو فرونسواز التي تعرف عليها البشير في فرنسا وقدمت له المساعدة بعد إصابته؛ حملته بيديها إلى بيتها لتعالجه وتعينه على استعادة قواه، فبعد "مجهود عظيم، بذلته السيدة بكل بسالة.. أجلست البشير الفاقد الإدراك على أريكة قريبة.. وبعد أن اطمأنت السيدة عن البشير، احتضنته مثل طفل صغير عزيز على قلبها.. وأدخلته تحت الغطاء، ثم دثّرته جيدا" (عرعار، د.ت، الصفحات 106-107)

إن فرونسواز المتواجدة بفرنسا كان لها –والحق يقال–كبير الفضل في استيقاظ ضمير البشير، هذه المرأة التي آمنت بلا شرعية الاحتلال الفرنسي للجزائر، إذ وصل بها الأمر إلى إنكارها لزوجها الذي تعلقت به جدا، لكنه لما أن قُتل في الجزائر باحثا عن المغامرة والتلذذ باضطهاد وقتل الجزائريين غيّرت رأيها؛ لأنه حسبها "لم يكن يدافع عن قضية صحيحة،لم يكن يدافع عن حقٍّ فَقَدَه، وإنما كان من أولئك الذين يحرون وراء المغامرات، من أولئك المرتزقة الذين يفتلون الأهالي،ويدمرون القرى والمدن.. كل ذلك طمعا في المال، والتجبر.. إنهم مجرد حيوانات لا تستأهل الحياة.." (عرعار، د.ت، صفحة 210)

وفي خاتمة هذا العنصر نودّ طرح فكرة مستقاة من استقرائنا للرواية، هي نتاج تأويل خاص، قد يحتمل الصواب والصدق وقد يجانبه، ولربما قد يكون بعيدا عنه كل البعد، إن فر رأينا أن عودة البشير إلى الجزائر بعد استقلالها بإيعاز من فرونسواز الفرنسية فيه تلميح بالاستعمار الجديد، وطرح لفكرة التابع، الاستعمار الذي يتحكم في البلدان المتخلفة أو السائرة في طريق النمو ويخضعها لسيطرته لتظل تابعة له في سياساتها وقراراتها وجميع شؤونها. لكن هذه المرة ليس بالسلاح أو بالقوة، وإنما بالهيمنة على ممتلكاتها والاستحواذ عليها، والسيطرة عليها من الخارج. وخير دليل على ذلك الاتفاقيات المبرمة، وأبينها "اتفاقية إيفيان"، فما عودة البشير للجزائر بوساطة الفرنسية فرونسواز إلا إشارة من مُحَّد العالي عرعار إلى أننا لا نزال مستعمرين بطريقة أو بأخرى من طرف فرنسا. وما هذا إلا قدرةٌ من الكاتبِ إن قُصِدَ هائلةٌ تحسب له، وتُبين على تخريج سردي عال يستحق الوقوف والدراسة والتأويل.

5.الخاتمة:

وصفوة القول إن رواية "ما لا تذروه الرياح" قد عالجت مسألة الصراع الهوياتي الذي حصل إبان الحقبة الاستعمارية الفرنسية للجزائر، وطبيعة العلاقة بين الأنا والآخر الفرنسي، من خلال خطاب متحرر من سلطة الأحادية المركزية، ومنفتح على خطاب تتعدد فيه الأصوات والضمائر والمنظورات. ومن خلال استقرائنا لخطابها استخلصنا هذه النتائج:

– تعتبر الرواية أقدر الفنون الأدبية على استجلاء الصراعات الهوياتية ومناقشة ومعالجة سؤالات الهوية؛ لقابليتها الكبيرة على امتصاص وفهم العملية الاجتماعية بتطوراتها وتغيراتها.

_ لقد استطاع مُحَمَّد العالي عرعار أن يتمثّل عناصر السرد ويحرّرها من سلطة الكتابات المركزية ويوظفها في استدعاء التاريخ ومساءلة سراديبه.

– أنتج الاحتلال الفرنسي في الجزائر شخصيتين اثنتين هما: الشخصية الجزائرية المتشبثة بقيمها وهويتها الوطنية والثقافية والدينية والتاريخية والرافضة للاحتلال الفرنسي، وجاهزة لتقدّم أرواحها وكل ما تملك من أجل الحفاظ على أرضها ووطنها. وشخصية منهزمة ضعيفة الشخصية، تصدّعت مقوماتها وانسلخت عن هويتها نتيجة انبهارها الشديد بحضارة وتقدم المستعمِر الفرنسي.

– وحشية وهمجية الآخر/المستدمر الفرنسي المهووس بهواجس الإبادة والسادية، التي عكستها الرواية في مشاهد العنف والدموية والقتل والتعذيب في حق الأهالي والمجاهدين الجزائريين، صغارا وكبارا، رجالا ونساءً.

_تباين النظرة للآخر/المستعمِر الفرنسي؛ فنلفي صورته شنيعة بشعة بجرائمه وسياساته القمعية بعيون الوطنيين المتمسكين بهويتهم الجزائرية، ونلفيها في مواضع أخرى بعيونِ الحركى ذوو الشخصيات المنهزمة (أمثال البشير) صورة الآخر المثقف،الحضاري، المتقدم، الذي بحوزته مفاتيح العلم والسعادة والجمال.

– استحالة اتّحاد واندماج الأنا الجزائرية بالآخر الفرنسي بسبب التوتر الحضاري الكبير بينهما؛ فالأولى حضارة شرقية روحانية، وإن كانت تعيش التخلف فهي متشبّعة بالموروث الثقافي والنفسي وبكل ما تقتضيه المرحلة التاريخية آنذاك،والثانية حضارة مادية متقدمة تبتغي الهيمنة والسيطرة على دول العالم الثالث.

– تشتغل الرواية في بنيتها وفق نظام الوحدات الوظيفية، الذي يستجلي طبيعة العلاقة بين الثنائيات الضدية: الشرق والغرب، الجزائر وفرنسا، المستعمِر والمستعمَر، التقدم والتخلف، الحب والكره، الذكورة والأنوثة.

– إن لاستقلال الجزائر كبير الفضل لإيقاظ ذوي النظرة الانبهارية لفرنسا (الحركى)، ونزع الغشاوة من على أعينهم وإحياء ضميرهم، الذين تجاوزوا نكستهم خصوصا بعد وقوفهم على التفسّخ والانحلال الروحي والأخلاقي ومادية المستعمر الحضاري بزعمه.

6 . مراجع البحث

1. أليكسي ميكشيلي. (1993). *الهوية*. دمشق: دار الوسيم للخدمات الطباعية.
2. بول ريكور:. (2006). *"نظرية التأويل –الخطاب وفائض المعنى*. الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي. تم الاسترداد من ،،
3. جميل حمداوي:. (بلا تاريخ). *"أنواع المقاربات البوليفونية"*. تم الاسترداد من شبكة الألوكة: www.alukah.ne
4. حسام الخطيب. (1983). *روايات تحت المجهر*. دمشق: اتحاد الكتاب العرب.
5. حسن عليان. (2004). *'العرب والغرب في الرواية العربية'*. عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع،.
6. حسنين حسن حنفي. (2012). *"الهوية"*. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
7. زكي نجيب محمود. (1993). *"في مفترق الطرق"*. القاهرة: دار الشروق، .
8. عادل مصطفى. (2003). *فهم الفهم –مدخل إلى الهرمنيوطيقا*. بيروت: دار النهضة العربية، .
9. فرانز فانون. (2015). *"معذبو الأرض"*. مصر: مدارات للأبحاث والنشر.
10. لويس معلوف. (د.ت). *المنجد في اللغة والأعلام*. بيروت، لبنان: المطبعة الكاثوليكية.
11. مُحَّد العالي عرعار. (د.ت). *'ما لا تذروه الرياح"*. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
12. مُحَّد عابد الجابري. (2012). *"مسألة الهوية –العروبة والإسلام والغرب*. بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.
13. واسيني الأعرج. (2002). *الرواية والتاريخ٢٢* . قطر: ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث.
14. ولي الدين عبد الرحمن بن مُحَّد بن خلدون. (2004). *: "مقدمة ابن خلدون*. د.م: دار يعرب.